قراءة تحليلية في كتاب: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة

مصطلح العلمانية
بين المفهوم والماصدق
عند الدكتور عبد الوهاب المسيري

دكتور

سامي صلاح الدين زكي نجم

ملخص

بدأ الدكتور عبد الوهاب المسيري دراسته عن العلمانية بحكم يقرر فيه أنه يغرق بين ما أسمله العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ولكنه سرعان ما نبهنا إلى أنه لن يلتزم التمييز بين الجزئية والشاملة أو الواعية الماهرة وغير الواعية البنيوية الكامنة. مع تنبيهه القارئ إلى أنه عادة ما يعني العلمانية الشاملة في كتابه، وهو الأمر الذي يظهر تناقضا بين ما نبه إليه الدكتور المسيري وبين الكتاب نفسه. استخدمت في هذا البحث منهجا تحليليا للوقوف على حقيقة المصطلحين اللذين صكهما الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري.

Professor Abdel Wahab Elmessiri started his study about secularism by distinguishing between what he called partial secularism and comprehensive secularism but he draw our attention to the fact that he didn't commit to that distinguishing as he usually means comprehensive secularism in his book .

I use analytical study through this research to clearly identify the two terminologies which created by dr Abdel Wahab Elmessiri.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وبعد

فقد بدأ الدكتور عبد الوهاب المسيري عمله الأهم . من وجهة نظري . بحكم يقرر فيه أنه يفرق بين ما أسماه: العلمانية الجزئية، فصل الدين عن الدولة، والعلمانية الشاملة، فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الحياة في جانبها الخاص والعام[١]، ولكنه سرعان ما نبهنا على أنه لن يلتزم دائما التمييز بين "الجزئية والشاملة، أو الواعية الظاهرة، وغير الواعية البنيوية الكامنة"، مع تنبيهه القارئ إلى أن ما يعنيه عادة . في كتابه هذا . هو العلمانية الشاملة[٢] وهو الأمر الذي يظهر تناقضا بين ما نبه إليه الدكتور المسيري وبين اسم الكتاب نفسه والذي يوجه نظر القارئ منذ الوهلة الأولى إلى ظن بأن الكتاب يعالج تقسيما وتصنيفا للعلمانية، وبما يوهم . ربما . أن الكتاب محاولة لتقديم صورة مقبولة عن بعض نماذج العلمانية يمكن أن تخضع معها بعض أحكام المناوئين للعلمانية للمراجعة وإعادة التقييم، وهو ما يتبدد مع مطلع الباب الأول؛ حيث يفسر الدكتور المسيري مصطلحيه فيذكر أن "الواقع الإنساني يتكون من بنيتين (أو مستويين)، البنية الظاهرة والبنية الكامنة"[٣] قاصدا بالأولى: الجزئية، وبالأخرى: الكلية/الشاملة، وهو يعتبرهما دائرتين، تحيط الأخرى بالأولى وتشملها، ثم يزيد الأمر وضوحا قوله إن "الأولى مجرد إجراءات وأفعال

---

[١] المسيري. عبد الوهاب. العلمانية الجزئية، العلمانية الشاملة. القاهرة. دار الشروق. ط١. ٢٠٠٢م. ص ٦

[٢] السابق. ص ٨

[٣] السابق. ص ١٦

تشكل تجليا للثانية، ولا يمكن فهمها حق الفهم إلا بالرجوع إلى الدائرة الأشمل"[1]، أي: الأخرى.

يفاجأ القارئ بمجرد تخطيه مرحلة العنوان وبعض فقرات من المقدمة أنه أمام محاولة للفت انتباه الباحث إلى ضبابية المفهوم والتباس المصطلح عند كثيرين، يستوي في ذلك الداعون والرافضون، ومن المفارقات والميزات . أيضا . التي تحسب لهذا الكتاب: أن الدكتور المسيري وهو يهدم فكرة استبدت بالباحثين في هذا الشأن مفادها أن "مصطلحا على هذه الدرجة من الأهمية والمحورية والذيوع لابد أن يكون واضحا تمام الوضوح"[2]، استخدم في قراءته للأقوال المتعددة والنماذج المتباينة عن العلمانية نسقا إيجابيا للبناء على خلاف ما جرت به عادة التقليد من تفنيد للآراء ثم إيراد رأي المؤلف، وهو ما كان يعني . في أغلب الأحوال . زيادة عدد الأقوال قولا، والآراء رأيا، فإذا به يرسم فكرته وهي "محاولة للوصول إلى تعريف للعلمانية الشاملة من خلال تجاوز التسميات والتعريفات والمصطلحات والمفاهيم والظواهر، وصولا إلى النموذج الكامن وراءها جميعا، حتى تظهر الوحدة الكامنة خلف التنوع"[3] مما يبدي أن الظواهر والمصطلحات المختلفة إنما هي تجليات للنموذج نفسه تشير إلى نفس الظاهرة وذات المفهوم.

هكذا يشرح الدكتور المسيري فكرته: فإذا كنا نواجه كل هذه الحدة والعصبية، واللغة اليقينية، وذلك الضجيج في معالجة اختلافاتنا حول

---

[1] السابق.

[2] السابق. ص ٥

[3] السابق. ص ٨، ٩

مفاهيم مصطلح (العلمانية)، بما يعطي انطباعات بأن هذا المصطلح له صورة محددة المعاني والأبعاد والتضمينات[١] فإن الدكتور المسيري في موسوعته الجامعة لهذه الأجزاء المتفرقة لصورة العلمانية، وادعاءات كل صاحب جزء أنه صاحب التصور الأمثل . يقرر أن هذه الدراسة "كتبت بروح استكشافية [لا تزعم امتلاك] اليقين الكامل، [بل يصرح أن ما دعاه إلى وضع هذه الدراسة بجانب اختلاط المصطلح على أهميته، إنما هو] نبرة اليقين التي تسم الخطاب المستخدم في تناول ظاهرة العلمانية، سواء من دعاتها أو مناوئيها"[٢].

استخدمت في هذا البحث منهجا تحليليا اعتمد أساسا على كتاب الدكتور المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، وقد ضمنته ثمانية مباحث تبدأ بفصل مفهوم العلمانية عن فكرة المفهوم الضيق الذي يقضي باعتبارها رؤية سياسية، ثم تؤصل للعلمانية الشاملة كنموذج كلي، ومن ثم طبيعة العلاقة بين النموذج الكلي وبين الفلسفة، ليستتبع ذلك الحديث عن رؤية فريدة ذات تصور مفهوم جديد لماصدق كثيرا ما صيغ في تصورات تقليدية، ثم رؤية الدكتور المسيري لدور العلمانية الشاملة في المجتمعات ومن ثم أثرها على علم الاجتماع نفسه، لتبدأ عملية صياغة التعريف بالعلمانية وإظهارها كدين مادي ذا رؤية فيزيقية في مقابل الدين الميتافيزيقي، ليختتم البحث بتصور لمدى توافق المفهوم الشرقي للعلمانية مع الماصدق العلماني بحسب رؤية الدكتور المسيري، ثم تعقيب.

---

[١] المسيري. عبد الوهاب. والعظمة. عزيز. العلمانية تحت المجهر. دمشق. دار الفكر. ط١. ٢٠٠٠م. ص ١١

[٢] المسيري. عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. ص ٩

١. العلمانية الجزئية والتمايز المؤسساتي الحضاري.
٢. العلمانية النموذج الكامن.
٣. العلمانية والتفلسف.
٤. (العلمانية) صناعة مصطلح تقليدي بتصورات وأحكام غير تقليدية.
٥. العلمانية وعلم الاجتماع.
٦. إعادة الصياغة والتعريف.
٧. العلمانية والتلفيق الديني.
٨. المفهوم العلماني في المجتمعات الإسلامية.
٩. تعقيب.
١٠. ثبت المصادر والمراجع.

العلمانية الجزئية والتمايز المؤسساتي الحضاري:

تتشنج أعصاب المؤمنين بشمولية الدين عند سماع الجملة العلمانية الأشهر (فصل الدين عن الدولة) وهي الترجمة غير الدقيقة لأشهر تعريفات العلمانية في الغرب Separation of Church and State[١] ، في نفس الوقت الذي تتشنج فيه أعصاب المؤمنين بقصر القداسة الدينية على الإله والنص المقدس دون المتناولين له بالتفسير، وبالتالي وضع مؤسسات الدولة داخل إطارها الزمني/المكاني دون تعسف في ربطها الإله أو دمجها ضمن إطار المقدس، أقول: يتشنج هؤلاء كلما سمعوا الاستدلال على شمولية الدين بالآية القرآنية: "إن الحكم إلا لله"[٢].

يقرر الدكتور المسيري أن الفصل المراد بالكلمة المعبرة عن العلمانية الجزئية إنما هو فصل بين مؤسسات الدولة[٣]، أي أنه فصل بين المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية، ثم يقول: إن "ثمة فصلا حتميا نسبيا للدين والكهنوت عن الدولة في كل المجتمعات الإنسانية تقريبا (إلا في بعض المجتمعات الموغلة في البساطة والبدائية، حيث نجد أن رئيس القبيلة هو النبي والساحر والكاهن وأحيانا سليل الآلهة"[٤]، ومن ثم، فإن فصل المؤسسات الدينية عن مؤسسات الدولة عملية ليست مقصورة على

---

[١] السابق. ص ١٧

[٢] القرآن الكريم. سورة الأنعام. الآية ٥٧، وسورة يوسف. الآيتان: ٤٠، و ٦٧

[٣] من الجدير بالذكر أن بعض المنوئن للعمانية يرفضون طرح المسيري هذا ويرون أن العلمانية شر كلها بالنسبة للدين وخطر عليه، وأن الفصل الذي تدعو إليها إنما هو فصل للدين عن الدولة، وفي هذا يقول ـ مثلا ـ سليمان بن صالح الخراشي: "فرية المسيري في عدم تناقض العلمانية مع الإسلام بتقسيمها إلى شاملة وجزئية: إن الدكتور المسيري قد جاء في مناظرة قريبة ببرنامج الاتجاه المعاكس (أبريل - ٢٠٠٧) ليعلن صراحة أن العلمانية الجزئية التي تعني فصل الدين عن الدولة لا تتناقض مع الإسلام! ". الخراشي. سليمان بن صالح. عودة إلى عبد الوهاب المسيري وعلمانيته. مقال. صيد الفوائد. http://www.saaid.net/Warathah/Alkharashy/m/133.htm

[٤] المسيري. عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. ص ١٧

المجتمعات العلمانية بأية حال، وإنما هي عملية موجودة في معظم المجتمعات المركبة بشكل من الأشكال"[١]، وعلى صعيد آخر فإن المؤمنين بشمولية الدين إنما يتناقلون أخبارا من مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"[٢]، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالمعارك الحربية إنها "الرأي والحرب والمكيدة"[٣]، لذا فإن الدكتور المسيري يشير إلى أن أمور الدولة لا يمكن أن ينازع الساسةَ فيها علماءُ الدين، فـ"إدارة الدولة، أو شراء نوع معين من الأسلحة، أو مناقشة أمور فنية تتصل بالميزانية العامة، وهي أمور لا يعرفها سوى الفنيين، ولذا، فليس بإمكان رجال الدين (مشايخ* كانوا أو قساوسة) أن يفتوا فيها"[٤].

---

[١] السابق. ١٨

[٢] السيوطي. جلال الدين. جامع الأحاديث. حديث رقم: ٢٦٠١، ٢٦٠٢ ، أخرجه أحمد والحاكم وابن ماجة وابن حبان عن أنس، وابن ماجة وابن حبان عن عائشة، وابن خزيمة عن أبي قتادة.

[٣] ابن حبان. محمد بن حبان بن أحمد التميمي. الثقات. دار الفكر. ط١. ١٩٧٥م. ج١. ص ١٦١

* وجب التنبيه على أن علماء الشريعة أو المشايخ كما يطلق عليهم في بعض البلدان الإسلامية كمصر ليسوا رجال دين، وإنما طلاب علم وباحثون وعلماء، شأنهم في هذا شأن المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة سواء كان متعلقا بالعلوم الإنسانية أو التجريبية، بل إن الإسلام يعتبر كل مسلم رجل دين، وإن علماء الشريعة في الإسلام وهذا شأنهم فإنهم يتقدمون حيث يطلب تقدم المتخصص في علم الشريعة ويتأخرون حيث يطلب تخصصا آخر، وأما أمور السياسة فإن حالهم كأية حال أخرى، فمنهم الصالح للعمل السياسي ومنهم غير ذلك باعتبار تفاوتهم في قابليتهم الطبعية والمكتسبة لفن السياسة وما يلزم من خبرات لممارستها، ليس على أساس أنهم علماء شريعة، ولكن باعتبارهم مواطنين، وعلماء الشريعة ليست لهم سمات خاصة، ولا هيئات دينية منظمة، إلا أن تكون مدارس متخصصة في دراسة الشريعة كأية مدرسة أخرى، وما جرت به العادة من جمع التعليم الشرعي والدعوة والتربية وغير ذلك في جهة واحدة مثل الأزهر الشريف فهو من قبيل التنظيم المؤسساتي للدولة، ولا مانع ديني من تقسيم هذه الأمور على عدة جهات، بل هكذا كان حال الأزهر دائما ـ مدرسة علمية فقط ـ حتى صدور قانون تنظيم الأزهر على عهد جمال عبد الناصر، وابتدأ شيوع كلمة: المؤسسة الدينية، يقصد بها الأزهر وهو غير صحيح.

[٤] المسيري. عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. ص ١٨

إذا كان الأمر كذلك فليس ثمة حاجة مطلقا للعلمانية وقد أتت تقرر ما هو حتمي في معظم المجتمعات، أو المجتمعات ذات العراقة المدنية على الأقل "فلا علاقة للإسلام والمسلمين بها"[١]، اللهم إلا أن تقصر تواجدها وجهودها على المجتمعات شديدة البدائية، ولكن الأمر ليس كذلك بالطبع، وهو ما يثبت ما ذهب إليه الدكتور المسيري من أن العلمانية الجزئية "مجرد إجراءات وأفعال تشكل تجليا" للعلمانية الشاملة التي تعد الدائرة الأكبر و"البنية الكامنة والمرجعية النهائية"، ولا يمكن فهم العلمانية الجزئية "إن نظرنا إليها معزولة عما حولها، إذ يلزم أن نعود إلى الدائرة الشاملة الأكبر التي تشمل الأمور النهائية والمنظومات المعرفية والأخلاق الكلية التي تمت عملية الفصل في إطارها، أي أنها (الدائرة الشاملة) تحوي النموذج الإدراكي الأساسي"[٢].

العلمانية النموذج الكامن:

من الخطأ . فيما يذهب الدكتور المسيري . قصر العلمانية على جملة من الإجراءات والعمليات الآلية، بحيث يعد هذا تفريغا لها من محتواها المعرفي، في نفس الوقت الذي يشير فيه الدكتور المسيري إلى أن العلمانية الجزئية تمثل المرحلة الأولى للمصطلح بحسب الظرف التاريخي الذي نشأت فيه، ولكنها تطورت "بحيث تجاوزت مجالات السياسة والاقتصاد والأيديولوجيا، وأصبحت العلمنة ظاهرة اجتماعية كاسحة، وتحولا بنيويا عميقا يتجاوز عملية فصل الدين عن الدولة وعملية التنظيم الاجتماعي (الرأسمالي والاشتراكي)، ويتجاوز أية تعريفات معجمية وأية

[١] السابق. ص ٢١

[٢] السابق. ص ١٦

تصورات فكرية قاصرة محدودة"[1]، ومن ثم تصبح الآليات والتطبيقات مجرد مداخل لمرجعية وقيم وعقيدة لها أهداف مرحلية ونهائية، وهي تعمل على "إعادة صياغة وجدان الناس وأحلامهم ورغباتهم (حياتهم الخاصة) وتعلمهم بشكل شامل كامل، دون أن يشعروا بذلك، من خلال عمليات تبلغ الغاية في التركيب والكمون"[2] وقد تتم عمليات العلمنة من خلال الدولة المركزية، بمؤسساتها الرسمية، أو من خلال قطاع اللذة من خلال مؤسساته الخاصة، أو من خلال عشرات المؤسسات الأخرى (ومنها المؤسسات الدينية ذاتها) أو من خلال أهم المنتجات الحضارية أو أتفهها"[3].

يذهب الدكتور المسيري إلى الحديث بشكل رئيس . في كتابه . عما أسماه: العلمانية البنيوية الكامنة، والتي تنتشر عبر آلياتها وتتغلغل في المجتمعات دون حتى أن يشعر الناس بها، بل ربما انتشرت وتغلغلت في صفوف المعارضين لها وبأيديهم بما تمنحها أنماط حياتهم من ملاءمة للنمو والانتشار، كما يحدث في الأوساط التي تزداد فيها أنماط حياة المدينة، "والتي تؤدي إلى الهجرة من القرية إلى المدينة، وإلى تركيز البشر في رقعة محدودة، وظهور أشكال جديدة من التضامن غير الأشكال القبلية أو القروية أو الأسرية، وتسارع إيقاع الحياة، وتفكك الأسرة، وظهور مؤسسات حكومية تضطلع بكثير من أدوار مؤسسة الأسرة، وانتشار المصنع (والسوق) كوحدات أساسية ومركزية، وتهميش القيم الأخلاقية

[1] السابق. ص ٢٠

[2] السابق. ص ٢٤

[3] السابق. ص٢٠

والإنسانية والدينية، وهيمنة أخلاقيات السوق وقوانين البيع والشراء والعرض والطلب"[١] مما يؤدي إلى تولد استعداد ذهني ونفسي "لدى المواطن للتعامل مع الواقع بشكل هندسي آلي كمي، كما تخلق التربة الخصبة التي ينمو فيها الإيمان بأن الواقع (وضمن ذلك كثير من جوانب السلوك الإنساني) إن هو إلا مادة نسبية منفصلة عن القيمة توظف لتعظيم اللذة وزيادة المنفعة المادية، وبأن القيم الأخلاقية نسبية، وبأن البقاء للأصلح، أي أن بنية المجتمع نفسها تولد رؤية معرفية أخلاقية علمانية شاملة"[٢].

العلمانية والتدين:

العلمانية فيما يستخلص من دراسة الدكتور المسيري المنافس الأخطر للدين في التغلغل في المجتمعات البشرية، وهي تقضي عليه حتى من داخله دون حاجة إلى مؤامرات تحاك أو أفكار تصدر، وهي بهذا غير مرتبطة بالإلحاد، أو الشيوعية مثلا، ولكنها قد تفرز من داخل مجتمعات هي الأكثر التزاما بدين من الأديان.

شهد العالم على مدار تاريخه صراعات بين أديان وأخرى، وبين أيديولوجيات وأخرى، ولكن مثل هذه الصراعات كانت . فيما يستنبط من دراسة الدكتور المسيري . الضمانة الأولى للحفاظ على هوية التدين ضمن مقومات الشخصية الإنسانية، بل ربما كانت هذه الصراعات . لولا دمويتها التي أضرت بالإنسان كثيرا . نوعا من تلاقح الأفكار لتجديد الفِكَر، ومن ثم النظام الدفاعي البشري المسئول عن حفاظه على تدين البشرية، إن

[١] السابق. ص ٢٥

[٢] السابق.

العلمانية القادمة من الأفكار الناعمة والرؤى البريئة تعمل على تفكيك الإنسانية وتركيب كائنات آلية كمية.

"فكرة الإنسان الطبيعي والعودة إلى بساطة الطبيعة (التي عادة ما يتم الخلط بينها وبين مفهوم الفطرة)، والقول بوحدة العلوم وتبني النماذج الموضوعية أو العقلية المادية (التي عادة ما يتم الخلط بينها وبين مفهوم العقل ذي المرجعية الدينية)، وفكرة نهاية التاريخ، والمنظومات الحلولية، وخطاب التمركز حول الأنثى، ... (التي شرت) T-Shirt الذي يرتديه أي طفل أو رجل وقد كتب عليه مثلا – اشرب كوكاكولا– إن الرداء الذي كان يوظف في الماضي لستر عورة الإنسان ولوقايته من الحر والبرد، وربما للتعبير عن الهوية، قد وظف في حالة (التي شيرت) بحيث أصبح الإنسان مساحة، لا خصوصية لها، غير متجاوزة لعالم الحواس والطبيعة/المادة. ثم توظف هذه المساحة في خدمة شركة الكوكاكولا (على سبيل المثال)، وهي عملية توظيف تفقد المرء هويته وتحيده، بحيث يصبح منتجا بائعا (الصدر كمساحة) ومستهلكا للكوكاكولا ... أي أن التي شرت أصبح آلية كامنة من آليات العلمنة"[1]، كل هذه الأشياء وأخرى غيرها كثيرة تؤدي في النهاية إلى تعميم النموذج العلماني البنيوي الكامن في مجتمعات ـ ربما ـ بقيت تلعن العلمانية وتدعي صمودها أمام المتآمرين لغرسها في صفوفهم.

[1] السابق. ص ٢٦

العلمانية والتفلسف:

التحول التدريجي للإنسان من كائن حي متفاعل إلى كائن وظيفي "قادر على تنفيذ كل ما يصدر إليه من أوامر دون أن يثير أية تساؤلات أخلاقية أو فلسفية"[١] يصنع كائنات متمركزة حول الطبيعة/المادة، بعد فشل نموذج علماني آخر ينادي بالتمركز حول الإنسان في الصمود، ذلك النموذج الذي يستند على أرضية فلسفية راسخة ممثلة في مادية الفلسفة الغربية على مر تاريخها والتي عملت على مدى حقب طويلة على "إزالة الإنسان كظاهرة مركبة مستقلة حرة"[٢]، العلمانية نتاج الفلسفة الغربية التي بذلت قصارى جهدها لحرمان الإنسان إنسانيته، بما في ذلك التفلسف نفسه، وهو الأمر الذي بات مؤكدا كلما زاد توغل البشر داخل غابة العلمانية التي تشبه أكثر ما تشبه (بيت جحا) أو ما يسمى ببيت المرايا الذي يظهر الإنسان فيه كصور متغيرة ومتفاوتة لجسد واحد لا فكرة من ورائه ولا روح غير ما يظهر على صفحة المرآة من حركات وتقلبات حسية.

(العلمانية) صناعة مصطلح تقليدي بتصورات وأحكام غير تقليدية:

كان "جون هوليوك John Holyooke (١٨١٧ . ١٩٠٦) أول من صك المصطلح بمعناه الحديث، وحوله إلى أحد أهم المصطلحات في الخطاب السياسي والاجتماعي والفلسفي الغربي. وقد حاول هوليوك أن يأتي بتعريف تصور أنه محايد تماما (ليست له علاقة بمصطلحات مثل (ملحد) أو (لا أدري). فعرف العلمانية بأنها: الإيمان بإمكانية إصلاح

[١] السابق. ص ٢٧

[٢] السابق. ص ٣١

حال الإنسان من خلال الطرق المادية، دون التصدي لقضية الإيمان، سواء بالقبول أو الرفض"[1].

لا يخفى ما في هذا التعريف من شبه بينه وبين ما أثبته القرآن الكريم على لسان قوم شعيب . عليه السلام . بعدما أتاهم بأوامر إلهية تنظم معاملاتهم في الأسواق، " قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ"[2]، فكان تعريضهم بما يقول بدعوى نقصان حلمه (عقلانيته) ورشده (حكمته/واقعيته) إذ أتى لمعالجة قضية مادية بقوانين مقدسة.

ولذلك فإن "المصطلح الذي تصور هوليوك أنه محايد، ليس محايدا تماما، فهو يشير من طرف خفي إلى رؤية شاملة للكون، وإلى منظومة قيمية انسلخت عن الإيمان الديني وتبنت الطرق المادية"[3]، ومن ثم فهو يؤصل لدين مادي يتبنى "الغيبيات العلمانية"[4] شديدة التطرف من حيث أراد الابتعاد عن الغيبيات.

إنها الغيبيات العلمانية حقا، وهي في هذا تختلف عن الغيبيات التقليدية التي تعتمد على المطلق الثابت، ولكن العلمانية تنتهج نهجا نموذجيا إدراكيا كامنا تفرعت عنه متتالية نماذجية تتحقق تدريجيا في الزمان، ومن خلال عمليات علمنة متصاعدة آخذة في الاتساع. ومن ثم، نجد أن

---

[1] المسيري. عبد الوهاب. والعظمة. عزيز. العلمانية تحت المجهر. ص ١٢

[2] القرآن الكريم. سورة هود. الآية: ٨٧

[3] المسيري. عبد الوهاب. والعظمة. عزيز. العلمانية تحت المجهر. ص ١٤

[4] المسيري. عبد الوهاب. الأيديولوجية الصهيونية. الكويت. عالم المعرفة. ١٩٨٢م. ج١. ص ١٨١

معدلات العلمنة في المراحل الأولى من المتتالية تختلف عن نظيرتها في المراحل الأخيرة[١].

لقد حملت العلمانية منذ نشأتها . الحديثة . نموذجين من نماذج العلمنة: "نموذج متمركز حول الإنسان وآخر متمركز حول المادة"[٢]، وقد كان بإمكان المدقق في تاريخ الفكر والفلسفة الغربيين التنبؤ بأن الصراع المحتدم بين النموذجين . آنذاك . لابد سيحسم . آجلا أو عاجلا . لصالح النموذج الآخر، المعبر في صورته الحديثة عن التصور الفلسفي القديم للإنسان، والذي لم يستطع تصوره خارج إطار التصنيف النوعي الطبيعي للكائنات، ومن ثم فقد آل الأمر في النهاية لنزع الإنسان عن عرش المركزية وإحلال الطبيعة/المادة لتتفرع عنه متتالية نماذجية جديدة منقسمة إلى: الحاجة/الإنتاج، واللذة/الاستهلاك، لتسقط الأولى وتبقى الأخرى، حتى شاهدنا "الشعب السوفيتي [مثلا] أمام محال الهامبورجر وكأنها أمام معبد أحد الآلهة الوثنية (متمركزة تماما حول السلع والموضوع)، واحتسوا البيبسي كولا وكأنهم يمارسون تجربة دينية أو شبه دينية!"[٣] وهكذا.

العلمانية وعلم الاجتماع:

ورث علم الاجتماع الغربي ذلك الاختلاط والتخبط في الحقل الدلالي لمصطلح العلمانية، مما جعله يخفق في تطوير نموذج شامل ومركب للعلمانية، وذلك لما اعتمدت عليه هذه العلوم الإنسانية الغربية من نماذج كمية لا تأبه لغير دراسة الظواهر التي توجد داخل نطاق الدراسة وحسب

[١] المسيري. عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. ص ٣٠

[٢] السابق. ص ٣٢

[٣] السابق. ص ٣٤

دون التفات إلى مفهوم الإنسانية[1]، وما يحويه من ميتافيزيقا روحية؛ لتتبنى ميتافيزيقا علمانية تعمل على الإحاطة بالواقع كله في صورة أجزاء منفصلة وجزئيات متناثرة لا رابط بينها، بحيث يجعل ذلك التوجه من هذه العلوم ذاتها جزء من المنظومة العلمانية نفسها: فتؤصل لعلم واحد يتناول الظواهر الكمية ولا يأبه للأطر والكليات الشاملة المبينة للوحدة من وراء التعدد، وهو ما عاد بالعاقبة على العلمانية نفسها "فلم يتوصل إلى نموذج تفسيري شامل مركب متكامل لظاهرة العلمانية"[2] فانفصلت أو تم فصلها عن باقي المصطلحات والظواهر.

إعادة الصياغة والتعريف:

خطأ مشهور ولا صواب مهجور، كما يقال، ولكن في مقام الحديث عن مصطلح كالعلمانية يصبح: خطأ مشهور أثبت من صواب مهجور، يعلن الدكتور المسيري التباس المصطلح شأنه شأن مفهومه، بل هو يعلن رفضه التام للمصطلح ويتمنى لو كان الأمر بيده فأهال على مصطلح العلمانية التراب ليطلق على المسمى مصطلحا آخر هو: "نزع القداسة أو الواحدية المادية"[3]؛ لما لهما من شمولية أكثر وعمق أكبر، بالإضافة إلى كونهما غير محملين "بأعباء أو خلافات أيديولوجية وعقائدية حادة كما هو الحال مع لفظ العلمانية"[4]، ولكن، هيهات، فقد انتشر المصطلح بين المؤيدين والمعارضين على حد سواء.

---

[1] المصدر السابق. ص ٣٩، ٤٠

[2] السابق. ص ٤٢

[3] السابق. ص ٥٠

[4] السابق.

ثم إن محالة التعريف بهذا المصطلح عن طريق عرضه على أحكام الشرائع الدينية أو منظومة القيم الأخلاقية . بحسب الدكتور المسيري . هو ما أضر بالمفهوم والتعريف أيما ضرر، لذا فهو . وإن لم يستطع أن يبدأ من الصفر في اشتقاق المصطلح ونحته . سيبدأ منه في إعادة تعريف المفهوم وتجلية المراد من المصطلح، ومن ثم كان تعامله مع المفهوم باعتباره "رؤية معرفية شاملة لله والإنسان والطبيعة، تشكل متتالية تتبدى في الزمان والمكان بدرجات وأشكال مختلفة"[١].

إن الحديث عن العلمانية كمصطلح يقصد به فصل الدين عن الدولة يتعامل مع قضية ذات مجاهيل متعددة؛ فالدولة . على سبيل المثال . اليوم ليست هي الدولة التي صيغ المصطلح مع وجودها، "فالمؤسسة الحاكمة اليوم في الغرب لم تعد الدولة الصغيرة الضعيفة التي تنافسها العديد من المؤسسات الأهلية الأخرى، بل أصبحت دولة ذات أذرع طويلة تتبعها مؤسسات أمنية متعددة. وظهر قطاعا الإعلام واللذة في المجتمع، وهما قطاعان ضخمان رهيبان يصلان إلى الرجال والنساء والأطفال في كل مكان وزمان. وكل هذه المؤسسات الحكومية وغير الحكومية تتدخل في أخص خصوصيات حياة الإنسان، وضمن ذلك حياته الجنسية وعلاقة الآباء بأطفالهم وتصوغ صورة الإنسان لنفسه. في هذا الإطار الجديد، بأي معنى من المعاني يمكن الحديث عن العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة"[٢]؟!

---

[١] السابق.

[٢] السابق. ص ٥٥

لا شك أننا نحتاج إلى مفهوم للعلمانية يشمل منهجها الشامل في فصل الدين عن قطاع الإعلام واللذة، ومن ثم قطاع الاستهلاك كله، وقبله قطاع الإنتاج والتصنيع، ومنظومة القيم والمعاملات الخاصة والعامة ومنها الدولة التي صارت بمفهومها اليوم محراب الإنسان الذي يدور في فلكه طوال عمره، بل أصبحت عقيدة ضرورية لا يسع الإنسان الكفر بها دون أن يتعرض لعقوبة الإعدام المادي و/أو المعنوي على جريمة الردة عن الإيمان بالدولة، أي دولة كانت، وذلك بالطبع فيما يتعلق بمصطلح الدولة فضلا عن مصطلح الدين الذي بات أشد ضبابية عند كثيرين من مصطلح العلمانية نفسه، وقد أمسى يتأرجح بين القداسة والنقد، وبين الطقس والمعاملة، وبين الكهنوتية وحق المعرفة.. إلخ.

إن المشكلة الحقيقية نشأت من اعتقاد العالم الغربي ومن ثم أهل الشرق بالتبعية أن العلمانية ظاهرة غربية نشأت في ظل ظروف اجتماعية/سياسية معينة في أوروبا العصور الوسطى، لذلك أهملت التعريفات الغربية ثم الشرقية للعلمانية "قضية المرجعية النهائية للمصطلح (والمفهوم)، ومن ثم لم يتم التمييز بين الدائرتين: الصغيرة الجزئية، والكبيرة الشاملة.. [كما أن القضية] تعرض كثيرا من التعريفات للعلمانية باعتبارها ظاهرة غربية وحسب ..."[1]، ومن ثم جاء الوهم بأن العلمانية رؤية سياسية أو جزء من منظومة توجهات مجتمعية يتناولها الوعي الإنساني المعاصر في مواضع معينة، وبهذا أصبحت مجرد "فكرة ضمن أفكار أخرى، وأصبح تاريخها جزء من تاريخ الأفكار ... [وصارت]

[1] السابق. ص ٧٩

برنامجا إصلاحيا أو برنامجا تآمريا، وتم تجاهل عمليات العلمنة البنيوية الكاملة المسئولة الأساسية عن تحول المجتمع"[١].

الحقيقة أن كثيرين من مفكري الغرب أقاموا العديد من المراجعات للمصطلح بغرض إصلاح الخلل الفادح في مفهوم العلمانية، فاعتبرها . على سبيل المثال . إرفنج كريستول Irving Kristol، المثقف الأمريكي اليهودي: "جزء عضوي من عملية التحديث، وهو يصف العلمنة بأنها: رؤية دينية حققت انتصارا على كل من اليهودية والمسيحية. وهو يصر على تسميتها: رؤية دينية، أي: رؤية شاملة (رغم رفض العلمانيين ذلك)، لأنها تحتوي مقولات عن وضع الإنسان في الكون وعن مستقبله لا يمكن تسميتها علمية، ذلك لأنها مقولات ميتافيزيقية لاهوتية. وفي هذا الدين (العلماني) يصنع الإنسان نفسه أو يخلقها (تأليه الإنسان)"[٢].

العلمانية والتلفيق الديني:

عندما تلقح أية حضارة بجرثومتين مختلفتين من جراثيم الهوية والذات فإن الصراع الناشئ بين هاتين الجرثومتين يؤدي في النهاية إلى كمون إحداهما وانتشار الأخرى، ولكنها تنتشر محملة بطفرة وراثية جديدة هي خليط بين الصفات الأساسية للجرثومة الفائزة في الصراع وبين صفات أخرى مكتسبة من الجرثومة الكامنة!

كان ذلك بالفعل ما حدث مع الحضارة الغربية منذ عصر النهضة بعد كمون الديانة المسيحية وانتشار ديانة الإنسان الطبيعي ذات المصدر

---

[١] السابق. ص٩٩

[٢] السابق. ص ١٠١

الإغريقي، والتي كمنت بدورها لقرون طويلة بعد انتصار المسيحية عليها وانتشارها محملة بصفات إنسانية وحلولية مستمدة من الفلسفة الإغريقية.

لقد عمل ذلك التلاقح وخروج الدين الإنساني الطبيعي من كمونه على "تفكيك العلاقة بين الإيمان والالتزام والكنيسة (أي الدين)، بحيث لا يعد أحدهما شرطا للآخر. وقد أخذت العلمنة شكل تمحور الفلسفة حول مبحث الإنسان، وإدخال مبحث الإله في هذا العالم، أي تماهي مبحث الإله في مبحثي الإنسان والطبيعة (الكون)"[1].

تمت في إطار هذا الفهم والخلط بين جرثوميتين مختلفتين في النشأة والمرجعية محاولة تاليه الإنسان، بل أنسنة الإله، وقد وجد من بين هؤلاء العلمانيين من ينطلق في علمانيته من منظور ربوبي مثل جون كين، وقد كان يعد من أهم منظري العلمانية، الذي كان يؤمن بإله دون حاجة لوحي، "فيما يسمى (الدين الطبيعي).وقد تبنى موقف المفكر الربوبي الأمريكي توماس بين Thomas Paine الذي دعى إلى ... استيعاب الدين في المجتمع، بحيث يتم الإبقاء على فكرة الإله، لكي تظل مصدرا للأخلاق في المجتمع، مع إلغاء أي دور للأديان فيما عدا ذلك"[2].

المفهوم العلماني في المجتمعات الإسلامية:

في إطار الإبهام الشديد الذي غلف المفهوم، ومحاولات مفكري الغرب صياغة مفاهيم جديدة بعقد مراجعات واسعة المجال أدت في كثير من الأحيان إلى الاعتراف بالعلمنة البنيوية الكاملة أو بالدين العلماني، "تقبل كثير من المفكرين العرب (علمانيين وإيمانيين) الجوانب الإيجابية

[1] السابق. ص ١٠٣

[2] السابق. ص ١٠٩

للمنظومة العلمانية الجزئية، ورفضوا الشاملة حتى لا يسقطوا في المادية والعدمية... [وعملوا عادة على] تضييق نطاق مصطلح (العلمانية) إلى حدود الدائرة الجزئية، على أن تترك الأمور النهائية وشأنها"[١]، وفي إطار الاستبعاد للدائرة المعرفية المرجعية الأشمل بات مصطلح العلمانية مجرد مجموعة من الإجراءات المعزولة عن أية مرجعية نهائية[٢].

الأخطر من وجهة نظر الدكتور المسيري أن العلمانية بهذا المفهوم أصبحت تصورا يشترك فيه كثير من مفكري الشرق، سواء كانوا من المؤيدين للعلمانية أو المعارضين لها، بحيث يُتحدث عنها وكأنها جملة أفكار جزئية تتبناها طبقة اجتماعية معينة داخل المجتمع وتدعو إليها سائر طبقات المجتمع، وهي الأفكار الجزئية التي نشأت من قبل في أوروبا المسيحية بسبب طبيعة المسيحية، فتكون العلمانية إذن مجرد "ظاهرة مسيحية وحسب، مرتبطة ارتباطا كاملا بالغرب الذي لا يزال بعضهم يصفه بأنه مسيحي، لا علاقة للإسلام والمسلمين بها"[٣].

وبذلك يصبح المبشرون بالعلمانية في الشرق مجرد ناقلين لفكرة غربية خالصة إلى المجتمعات الشرقية، فيعتبرها المؤيد عملية تحديث وتنوير بينما يعتبرها المعارض جزء من مخطط محكم "أو ربما مؤامرة عالمية يقال لها أحيانا (صليبية) أو (يهودية) أو (غربية)"[٤]، وهو ما يعني غفلة تامة عما تنتظم فيه العلمانية الجزئية من نموذج حضاري متكامل يتسلل إلى ذات المجتمع . أي مجتمع . من خلال كثير من الظواهر والأفكار المهم

---

[١] السابق. ص ١٢٢

[٢] المسيري. عبد الوهاب. والعظمة. عزيز. العلمانية تحت المجهر. ص ١٧

[٣] السابق. ص ١٩

[٤] السابق.

منها والتافه، ويصبح الفارق بين المبشرين بالنموذج الجزئي الغربي وبين غيرهم مجرد الوعي بسلسلة الإجراءات العملية التي يتم إدخالها على المجتمعات الشرقية.

لا يعدو الإدراك الشرقي للعلمانية كونه امتدادا للإدراك الغربي المبتسر لها في ضوء (استتارة مظلمة تفكيكية) تبدأ بالقضاء على الإله لصالح الإنسان، ثم القضاء على الإنسان لصالح الطبيعة/المادة[1] من خلال آليات كثيرة تحول الإنسان الفرد/المجتمع إلى آلة تجريبية ذات مرجعية طبيعية/مادية (غير واعية) موضوعية[2].

تعقيب:

١. لم تكن بداية العلمانية تختلف كثيرا عن بدايات كثير من مصطلحات النهضة الغربية، ولكنها حملت من المعاني والمفاهيم بحيث يعد من قصور النظر الوقوف به عند تاريخ ومكان ولادته، وبحيث أصبح "ما يتشكل على أرض الواقع أبعد ما يكون عن فصل الدين عن الدولة، وإنما هو أمر أكثر شمولا من ذلك. فآليات العلمنة لم تعد الدولة وحسب وإنما آليات أخرى كثيرة لم يضعها من وضعوا تعريف العلمانية في الحسبان، من أهمها الإعلام والسوق و الدولة المركزية القوية. ومع هذا كلِّه ظل التعريف القديم قائماً، ولذا حينما نستخدم لفظ "علماني" فهو لا يشير إلى الواقع وإنما للتعريف الوردي الذي تخطاه الواقع"[3].

---

[1] المسيري. عبد الوهاب. فكر حركة الاستتارة وتناقضاته. نهضة مصر. ط١. ١٩٩٨م. ص٣٢

[2] المسيري. عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. ج٢. ص ١١، ١٢

[3] المسيري. عبد الوهاب. بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. مقال. ٢٠٠٧/٢/١م. http://www.elmessiri.com/articles_view.php?id=31

٢. يعد "تقسيم المسيري العَلمانية إلى مستويين: علمانية جزئية و أخرى كليِّة"[١] من وجهة نظر كثير من الباحثين فاضا للإشكال الدائر بين المؤيدين للعلمانية والمناوئين، ولكنه وبحسب ما يؤصل له المسيري في كتابه مكرسا لتعميق الهوة بين الفريقين؛ حيث يجعل المسيري الجزئية محتواة في الكلية ومظهرا من مظاهرها، وهو ما يعني أن على المنتصرين لفكرة الغيب والرافضين لطغيان المادة والنزعات التفكيكية أن يعملوا في نضالهم ضد العلمانية الشاملة على التصدي لمظاهرها وصورها الجزئية، بل تعد الجزئية جرثومة . إن جاز هذا التعبير . الكلية/الشاملة ونواتها.

٣. من الغريب أن كثيرا من المناوئين للعلمانية اعتبروا مذهب المسيري في العلمانية قولا يقينيا وعدوه حجتهم ومرجعيتهم، على الرغم من نفيه القطعية عن بحثه في أول كتابه، بالإضافة إلى رفضه التام لتصورهم عن العلمانية واعتباره إياهم من الواقفين على حد التاريخ بعيدا عن الواقع، ولكن إنما دعاهم إلى ذلك إمداد المسيري لهم بحديثه عن العلمانية الشاملة بما يشبه . من وجهة نظرهم . السلاح الفتاك الذي استطاعوا به ضرب العلمانية الجزئية في مقتل، في حين غاب عنهم أن معركتهم ضد الجزئية ليست معركة أصيلة ولا صراعا رئيسا، وإنما هو ضمن معركة ينبغي أن تكون بين الدين بمعناه التقليدي وبين العلمانية الشاملة باعتبارها العدو الأخطر للتدين الغيبي، وأما صراعهم مع الجزئية

[١] الدغشي. أحمد محمد. إشكال العلمانية في فكر المسيري، رؤية أخرى. مقال. البيان. ٣٢/٤/١. عدد: ٢٨٤ http://albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?ID=748

فيمكن القضاء عليه بوضع أنظمة سياسية محددة المفاهيم ومتفق عليها بين المؤيدين للعلمانية الجزئية وبين المعارضين لها.

٤. يدرك المؤيدون للعلمانية الجزئية . لأسباب سياسية . من المتدينين خطورة الربط بين الجزئية والشاملة؛ لما في ذلك من وضعية التقابل التي تنشأ بين الدين والعلمانية، ولذلك فإن على من ينتهجون نهج العلمانية الجزئية ويدعون إليها على المستوى السياسي أن يعملوا في رؤاهم بالتحديث والتطوير وألا يقفوا به عند حد المصطلح التاريخي، وإلا فعليهم أن يركنوا إلى مر الشكوى من عدم استجابة المجتمعات المتدينة لما دعوا إليه من نظم وآليات سياسية نافعة، ولكنها خلطت في تطورها بمفاهيم شاملة للحياة، وعليهم ألا ينتظروا الدعم الغربي لهم في تطوير رؤاهم تلك وقد توافق الغرب على الفصل الحقيقي بين الدين والحياة.

٥. إن العلمانية الشاملة . وبحسب رؤية المسيري . نموذج كامن يستوي ظهوره في المجتمعات الملحدة والمتدينة على حد سواء، ولكن المتدينة منها، والإسلامية على وجه الخصوص، لازالت تعترض على الجزئية باعتبارها واقع ملموس يمكن تتبعه رغم أن الشاملة . ربما . كانت تضرب بجذورها في المجتمع، وعليه فإن على المفكرين والمصلحين أن يعملوا على فصل الرؤى السياسية النافعة داخل العلمانية الجزئية وطرحها على المجتمع في صورة بعيدة عن العلمانية، وعليهم أن يعملوا على تتبع العلمانية الشاملة ودراسة ملامحها وآليات العلمنة، ومن ثم يكون كل من المجتمع المؤيد لها والمناوئ، على حد سواء، على بينة من أمره، إن شاء قبل العلمانية وطرح الدين وإن شاء رفضها وقبل الآخر.

ثبت المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. السنة النبوية:
- ابن حبان. محمد بن حبان بن أحمد التميمي. الثقات. دار الفكر. ط١. ١٩٧٥م.
- السيوطي. جلال الدين. جمع الجوامع.

٣. الخراشي. سليمان بن صالح. عودة إلى عبد الوهاب المسيري وعلمانيته. مقال. صيد الفوائد.
http://www.saaid.net/Warathah/Alkharashy/m/133.htm
٤. الدغشي. أحمد محمد. إشكال العلمانية في فكر المسيري، رؤية أخرى. مقال. البيان. ١/٤/٣٢. عدد: ٢٨٤.
http://albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?ID=748
٥. المسيري. عبد الوهاب. الأيديولوجية الصهيونية. الكويت. عالم المعرفة. ١٩٨٢م.
٦. المسيري. عبد الوهاب. العلمانية الجزئية، العلمانية الشاملة. القاهرة. دار الشروق. ط١. ٢٠٠٢م.
٧. المسيري. عبد الوهاب. بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. مقال. ١/٢/٢٠٠٧م.
http://www.elmessiri.com/articles_view.php?id=31
٨. المسيري. عبد الوهاب. فكر حركة الاستنارة وتناقضاته. نهضة مصر. ط١. ١٩٩٨م.
٩. المسيري. عبد الوهاب. والعظمة. عزيز. العلمانية تحت المجهر. دمشق. دار الفكر. ط١. ٢٠٠٠م.